النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين في سوريا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر

م.د.بيداء علاوي شمخي جبر
كلية التربية (ابن رشد) / جامعة بغداد

ملخص باللغة العربية

النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين في سوريا خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر **تدور هذه الدراسة حول البحث في المحاور الآتية:**

أولاً: القناصل البريطانيون والحياة الاجتماعية في سوريا في بدايات القرن التاسع عشر.

ثانياً: النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين وعلاقاتهم مع مكونات المجتمع السوري.

ثالثاً: التفاعل الاجتماعي بين نشاط القناصل البريطانيين وسكان الولاية.

أظهرت الدراسة صورة عن الحياة الاجتماعية التي عاشها القناصل البريطانيون في سوريا، ولا تدل هذه الصورة على اضطراب، وإنما توحي بحياة استقرار ودعة، أمنها القناصل البريطانيون لأنفسهم. وكانت حياة لا تفتقر إلى الحيوية والنشاط.

لقد قدمت هذه الحياة للقناصل ألواناً جديدة من البشر والعادات والتقاليد، وجعلتهم بتماس مع الشرق، الذي كانوا يسمعون عنه ويحلمون به، وفي الوقت نفسه حفظت لهم أنماط حياتهم الخاصة وحريتهم وسلامتهم.

فالحياة في الاسكالات السورية كانت تبدو لهم بأنها غير متعبة. إذ كانوا يجدون كل الأمن والتسهيلات الضرورية، للالتفات إلى أعمالهم. أما في أوقات فراغهم، فكانوا غارقين في نزواتهم وملذاتهم ومنافساتهم. فهم قد نقلوا كل مظاهر

حياتهم اللاهية الى حيث يقيمون، وأحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الراحة والترف. اما المضايقات التي كانت تلحق بهم من بعض الحكام، فهي أمور عارضة، بالغوا فيها لينالوا حقوقاً أوسع، وليظهروا الدولة العثمانية بمظهر الانحطاط والبربرية.

ومن ثمَّ فأن القناصل البريطانيين كانوا يسيئون استعمال تلك الحقوق (الامتيازات) التي منحتها الدولة لهم، ويحاولون التأثير في شؤون الولاية، الأمر الذي ولدَ الأحقاد الاجتماعية تجاههم

المقدمة

ان الاتصال بين سوريا والغرب لم ينقطع، بل انه ازداد وتشعب. فإذا لم يخرج السوريون الى اوربا فان اوربا وفدت اليهم عن طريق العديد من القناصل والسفراء والسياح ورجال الدين المبشرين. واذا كانت صلة بلاد الشام قد اقتصرت في العصور الوسطى على شعوب البحر المتوسط من الأوربيين كالايطاليين، فان هذه الصلة قد اتسعت وامتدت، حتى شملت شعوب شمال اوربا وشمال غربها من البريطانيين والهولنديين وتضاعف عدد افرادها عن ذي قبل. فليس صحيحاً ان الدولة العثمانية قطعت دابر الاتصال بين الشرق والغرب بل على العكس تماماً، نراها قد فتحت ابواب إمبراطوريتها امام القناصل والسفراء والوافدين من اوربا، وسمحت لهم ان يقيموا على ارضها وفي اية بقعة يريدون، وان يتاجروا بحرية في موانئها ومدنها، ولم تضغط عليهم او تعيق تحركاتهم– كما تحاول دول اوربا ان تهول– حتى ان بعثاتهم التبشيرية كانت تنتقل بكل حرية، وتبث آراءها وبخاصة بين المسيحيين.

لقد كنا دائماً نعتقد إن المدارس الاجنبية والمؤسسات القنصلية والاجنبية حتى الجمعيات الخيرية والعلمية التي ينشؤها الاجانب في بلادنا على اختلاف الاسماء والنزعات، والاديان والدول، انما هي في الحقيقة سبلٌ تتشعب عند الانطلاق ولكنها تلتقي عند غاية قصوى واحدة هي السيطرة على الشرق، السيطرة الثقافية والدينية والسياسية. ولقد تبين ان المسلمين أصلب الناس عودا في تقُّبل النفوذ الاجنبي. وهذا الامر دعاني ان ابحث في موضوع ذي صلة بجهود القناصل البريطانيين وفعالياتهم

الاجتماعية لذلك جاءت الدراسة بعنوان (النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين في سوريا خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر)، وهذا الامر استلزم توزيع الدراسة على المحاور الاتية: –

اولاً: القناصل البريطانيون والحياة الاجتماعية في سوريا في بدايات القرن التاسع عشر.

ثانياً: النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين وعلاقاتهم مع مكونات المجتمع السوري.

ثالثاً: التفاعل الاجتماعي بين نشاط القناصل البريطانيين وسكان الولاية.

أولاً: القناصل البريطانيون والحياة الاجتماعية في سوريا في بدايات القرن التاسع عشر

سكن القناصل البريطانيون في الاسكالات [1] السوريا، ولم يدهشوا أن رأوا في الاسكالات تنظيماً يشبه إلى حد ما التنظيم الذي خلفوه وراءهم في بلادهم، بل افادوا منه ووسعوه وقدموا الحماية له، إذ أن الدولة العثمانية فهمت ناحيتهم النفسية والاجتماعية، فخصت الجاليات الأوربية بمكان واحد يجمعها، وبذلك ساعدتها على التجمع والترابط والتكتل وعمل القناصل على استقطاب أفراد كل جالية. ويمكن القول أن العاملين تعاونا ليخلقا مفهوم الأمة، أو الكومون، وتلاءم هذا التجمع مع التفكير الشرقي نفسه، الذي كان يرى في التجمع على أساس الدين، أو البلد، أو المهنة أمراً طبيعياً بل لازماً[2].

لقد شجع العثمانيون بناء الخانات[3] على نطاق واسع، وقد شيدت في الاحياء المجاورة للاسواق، فالجاليات الأوربية في سوريا إذن عاشت في جماعات ضيقة ملتصقة، أي أن أفرادها لم يتوزعوا بين السكان، وإنما أقاموا ملتحمين في بناء واحد. وفي الخانات الكبيرة، كانت جميع الجاليات تعيش معاً. إما إذا ازداد عددها، فقد كانت كل جالية تخص نفسها بخان وحدها، ففي حلب مثلاً، كان للبنادقة فندقهم القديم، الذي يحمل (اسمهم حالياً). أما الفرنسيون والبريطانيون والهولنديون، فقد استقروا في بادئ الأمر في (خان الجمرك) [4]، لاسباب الراحة المتوافرة فيه وقد اشتركت الامم الاوربية في السكنى فيه – ما عدا البنادقة – ردحاً طويلاً من الزمن. ومن الطبيعي أن تأخذ كل جالية جزءاً من هذا الخان الكبير ، حسب حاجتها، ويبدو

أن البريطانيين في القرن السادس عشر، قد شغلوا ثلاث غرف منه في عام 1596م الا ان القنصل البريطاني كان يقيم على ما يظهر في خان آخر في تلك المرحلة الزمنية، لأنه عندما عُين ريتشار فوستر (Richard Foster) ، اتجه إلى (خان البرغل) في حلب ليقيم فيه أولاً، ثم تحول منه مع الجالية إلى خان الجمرك. إلا أنه عندما زاد عدد الأوربيين فأن كل جماعة ذهبت لتستقر وحدها في خان خاص بها، بحسب عدد تجارها، فترك للبريطانيين وقنصلهم (خان الجمرك)، وأن اللوحات الورقية التزيينية التي حوفظ عليها، حتى وقت متأخر في القاعة، التي تعلو مدخل الخان، تذكر بإقامة البريطانيين فيها واستخدامهم لها كقاعة استقبال قنصلية [5]. ولا يحق للسلطات الحاكمة العثمانية أن تقتحم على القناصل أو التجار الأجانب بيوتاتهم في الخانات، فلقنصلهم وحده حق المحافظة على الأمن فيها. ولذا فأن كثيراً من اهل البلاد كانوا يودعون أموالهم التي يرغبون في اخفائها عن السلطات الحاكمة عند بعض هؤلاء التجار[6].

فالخانات هيأت للقناصل والتجار في الاسكالات السورية ما يحتاجون إليه من راحة جسمية، كما ضمنت لهم الراحة النفسية بتجميعهم في مكان واحد، حتى لا يشعرون بالغربة والوحشة عن أوطانهم. ويضاف إلى ذلك حمايتهم من الاحتكاك مع أهل البلاد، والسلطات الحاكمة، وما يعنيه هذا الاحتكاك عملية فرض الغرامات عليهم. وفي أوقات الاضطرابات الداخلية، كانت الخانات ملجأ أميناً لهم لأنها كانت مباني وقفية ولايجرؤ العثمانيون على مسِّها بسوء. وأثناء اجتياحات الأوبئة ولاسيما الطاعون، فأنهم كانوا يسجنون أنفسهم فيها ليحتموا من العدوى. فهذا السكن كان ديراً وحصناً وفي الوقت نفسه ينعزلون فيه عن المجتمع[7].

أصبحت الحياة في سوريا ميسرة للقناصل البريطانيين، وسهلة وواسعة، فلهم خدمهم ، إذ كان القنصل البريطاني يحضر معه أحياناً عشرة من الخدم من أهل البلاد (الأرمن أو الروم) ، ومن مواطنيهم، ليهيئوا لهم الأجواء التي كانوا يعيشونها في بلادهم وكانت لهم مائدة معروفة تسمى بـ(المائدة القنصلية) [8]، إذ كانوا يبقون مدة أطول على المائدة فيخلعون سترتهم العليا الرسمية، ويدخنون ما يقارب الساعة

والنصف، ثم ينسحبون للقيلولة، وعلى العشاء كان استرخاؤهم بعد الطعام، وتدخينهم يستغرق مدة أطول وكانوا دقيقين جداً في مراعاة انتظام أوقات الطعام[9].

وكانت تكاليف الحياة ضئيلة جداً، فالمواد الغذائية متوافرة نوعاً وكماً في كل مكان في سوريا، وبسعر رخيص. فموائدهم كانت مزودة بكل ما تشتهيه انفسهم من أطعمة ، ما عدا سمك البحر الذي لا يمكن الحصول عليه طازجاً إلا في الموانئ. وأكثر ما أعجب الأوربيين في إسكالات سوريا في المأكولات، الفواكه بشتى أنواعها، وكانوا يتناولونها بكثرة، ولقد أدهشهم استهلاك الأهالي الكبير لها. وقد احضر البريطانيون نبات الفريز (توت الشلق أو الفراولة) من اوربا وزرعوه على أسطح الخانات، ولكن طعمه – بحسب روايتهم – لم يكن كالانكليزي[10].

وعلى الرغم من تحريم شرب الخمر لدى المجتمع الإسلامي، فأن الدولة العثمانية سمحت للأوربيين بتناوله وإحضاره من بلادهم إذا شاؤوا، بل وصنعه في بيوتهم، وبالفعل درج البريطانيون من السفراء والقناصل المقيمين في الاسكالات السورية على صنعه في بيوتهم[11].

وفي الحقيقة إذا كان البريطانيون يعيشون أحراراً في بيوتهم وخاناتهم، ويطبقون فيها عاداتهم الاجتماعية الخاصة في معظم الأحوال، إلا أنهم عند خروجهم وتنقلهم في الطرقات، كانوا حريصون ما أمكن على أن يبدوا كأهالي البلاد أنفسهم، ولاسيما في ملابسهم والزي الذي يرتدون. وبالفعل فأنهم بصفة عامة كانوا يخرجون وقد ارتدوا قفطاناً وجبة مفراة في الشتاء، على النمط العربي – العثماني، ويطيلون شواربهم ولحاهم. والهدف من ذلك الأقلال من فرص الاحتكاك أو الاهانة التي يمكن أن يتعرضوا لها من قبل الأهالي، نتيجة استثارة لباسهم الغربي فضولهم والانصراف إلى أعمالهم دون لفت نظر أو تعرض لتهكم وقد اختار البريطانيون هذا الطريق بأنفسهم، دون أن يفرض عليهم من السلطات الحاكمة، قانوناً أو عرفاً، كما تراءى لبعض المؤرخين. فمن المعروف بأن الدولة العثمانية كانت تفرق بين رعاياها المسلمين والمسيحيين واليهود باللباس، أو بالأحرى بعَّمة الرأس، لذا فأنها لم تفرض عليهم لباسها الوطني. فاختيار الأوربيين للباس الوطني في الاسكالات، كان

احتياطياً لما يمكن أن يصيبهم من أذى ومضايقات الأهالي، لو تميزوا بلباسهم، وطلباً للراحة في عملهم، لاسيما أثناء فصل الصيف القائظ .

اتخذ الهولنديون والبريطانيون بشكل مطلق زي أهل البلد (السوري) ومظهرهم، ولكن الإيطاليين والفرنسيين احتفظوا بزيهم الأصلي[12].

رسمت العلاقات بين السلطات الحاكمة العثمانية في الاسكالات، والقناصل البريطانيين خطوطها الكبرى في الامتيازات، وهي عقود رسمية مكتوبة، فيبدو أن العلاقة بين سكان البلاد، والقناصل البريطانيين، كانت علاقة تلقائية وعفوية، لم تؤثر فيها معاهدات وعقود، ولم تتمكن بنود الامتيازات من تجميدها في قوالبها أو التحكم بها. فهي احتكاك ومعاملة وشعور، لا بنود نفذت أو لم تنفذ. وكان يسير هذه العلاقة ويؤثر فيها الاتفاق او الاختلاف في الدين بين البريطانيين، وعناصر السكان المختلفة. إذ كان شعور القناصل البريطانيين تجاه المسلمين جميعاً شعوراً عدائياً تسيطر عليه بغضاء قديمة خفية، وحقد دفين حملوها معهم من أوربا قبل أن تحط أقدامهم أرض بلاد الشام. وهذا الشعور المتعصب لم تخفف من حدته النهضة الفكرية التي رأتها وتبنتها أوربا في مطلع العصور الحديثة، ولا التحرر الديني، ولا الآفاق الجديدة المفتوحة، بل بقي الشعور ذاته الذي تأجج في العصور الوسطى، ودفع أوربا إلى الحروب الصليبية. وبالمقابل فأن المسلمين في سوريا كانوا لا يرون في القناصل البريطانيين سوى اشخاص نزلوا على أرضهم لا يعيشوا عليها سلاماً وحباً، وإنما سيطرة واغتصاباً، فكانت نظرتهم مزيجاً من الاحتقار والخشية[13].

كما يمكن القول إن الآراء متضاربة حول معاملة المسلمين الفعلية للقناصل البريطانيين، أو صلاتهم بهم. بل إن مؤرخي هذه المدة من المسلمين نادراً ما يشيرون إليهم. لأن الانعزال بين القناصل البريطانيين والمسلمين كان أقوى مما يكون. فبعض المؤرخين يؤكد بأن معاملة المسلمين للبريطانيين على الرغم من انكماشها كانت معاملة سمحة وحسنة، والبعض الآخر يصورها بأنها علاقة بربرية تتمثل في ضرب المسلمين للبريطانيين، وإهانتهم في الطريق، ولاسيما أثناء عيد الأضحى، حينما يتألق الشعور الديني المتعصب في نفس الشعب السوري[14].

ومن المفيد ان نشير الى ان القناصل البريطانييي ن لم يكونوا على اتصال مباشر بمجتمع المسلمين في سورية ، في الوقت الذي كانوا يجهلون عادات ذلك المجتمع وتقاليدهم ، الامر الذي جعل الجانبين على طرفي نقيض.

ثانياً : النشاط الاجتماعي للقناصل البريطانيين وعلاقتهم مع مكونات المجتمع السوري.

أقام القناصل البريطانيون علاقات مع المسيحيين من الروم والآرمن من أهل البلاد في سوريا، إذ كانت علاقات مفتوحة في الميدان التجاري[15].

لاشك أن الحياة الاجتماعية التي عاشها القناصل البريطانيون في سوريا منذ ضم العثمانيين لها حتى نهاية القرن السابع عشر، توحي بحياة استقرار أمنة، أمنها القناصل لانفسهم، فكانت حياة لا تفتقر إلى الحيوية والنشاط، بل قدمت هذه الحياة لهم ألواناً جديدة من البشر والعادات والتقاليد، وجعلتهم بتماس مع الشرق، الذي كانوا يسمعون عنه، ويحلمون به، وفي الوقت نفسه حفظت عليهم أنماط حياتهم الخاصة، وحريتهم وسلامتهم، ففي الاسكالات كانوا يجدون كل الأمن والتسهيلات الضرورية، للالتفات إلى أعمالهم، أما في أوقات فراغهم، فكانوا غارقين في نزواتهم ولذائذهم ومنافساتهم. فهم نقلوا كل مظاهر حياتهم اللاهية الى حيث يقيمون، وأحاطوا أنفسهم بكل مظاهر الراحة والترف[16]، فكان القناصل البريطانيون يمثلون الرأس الاجتماعي لجماعتهم، إذ يستضيفون المسافرين والسياح البريطانيين، ويحتفلون بالاعياد الوطنية والدينية، ويتبادلون الزيارات والضيافة مع القناصل الآخرين والأعيان المحليين[17].

وعندما بدأت بوادر الضعف تنتاب الدولة العثمانية خلال القرنين الثامن والتاسع عشر، فكان ضعفها المتوالي المتزايد سبباً في ازدياد كثرة التدخل الاجنبي في الدولة العثمانية بواسطة المستأمنين والقناصل[18].

إذ بدأ رعايا كل دولة يتوسعون في الامتيازات التي منحتها الدولة العثمانية لهم من قبل ليتمتعوا بحقوق وإعفاءات لم تكن من قبل لهم. وطبقاً لذلك أصبحت الشعوب والجماعات غير المسلمة تتمتع في الدولة العثمانية باستقلال طائفي فيما يتعلق بالأحوال الشخصية (من زواج وارث وغيرهما)، بأعفاء من الخدمة العسكرية

ومن كثير من الضرائب والملاحقات القانونية. حتى أن المجرم كان يرتكب جريمته فإذا لجأ إلى قنصله أو اختبأ في بيت رجل أجنبي لم يجسر القضاء العثماني على أن يصل إليه[19].

وفي ظل هذه الظروف استولت موجة من الخوف على قلوب الشرقيين من حكام وافراد، فنظروا بحذر إلى القناصل والتجار الاجانب، واخذوا يستمعون إلى نصائحهم ويعملون بها مكرهين. وشعر البريطانيون بواقع الحال فاستغلوه، ووفد تجارهم على الشرق يعبون من خيراته ويسيطرون على مقدراته حتى أضحى البعض يستجدي شفاعتهم لدى الحكام فتزلزل مكان السلطان ومركزه لأول مرة في نظر رعاياه، وظهر ضعفه واضحاً بعد أن كان يحاول ستره بمختلف الوسائل والاساليب[20].

بدأ القناصل البريطانيون يسيئون استعمال الامتيازات التي منحتها لهم حكومة الباب العالي عندما اصبحت الدولة ضعيفة، فقاموا بمعارضة الإجراءات المحلية، وكذلك اعطوا تصريحات خاصة بموظفي القنصليات (رعاية الباب العالي للمسيحيين) [21]. وأصبح نفوذ بريطانيا فعالاً في الدولة العثمانية، فأخذت تتنازع مع فرنسا على حماية الاجانب في الدولة العثمانية من الذين ليس لدولهم تمثيل في استانبول. فالأرمن والبلغار وأهل الجبل الأسود وبعض من سكان أميركا الجنوبية (الارجنتين والتشيلي والمكسيك) لم يكن لدولهم وزراء مفوضون أو قناصل في الدولة العثمانية، فلم يكونوا يتمتعون بالامتيازات الأجنبية. وكان هؤلاء إذ تمكنوا من الحصول على حماية فرنسا أو بريطانيا، استطاعوا أن يتمتعوا بجميع الامتيازات التي كان يتمتع بها البريطاني أو الفرنسي في الدولة العثمانية على حد سواء[22].

واساء بعض الوزراء والقناصل من البريطانيين والفرنسيين هذه السلطة في منح الحماية لرعايا الدول الذين لا تمثيل سياسي لهم في الاستانة، وجمعوا من وراء ذلك أموالاً طائلة. وعندما زاد ضعف الدولة العثمانية أكثر، زادت جرأة البريطانيين والفرنسيين على منح مثل هذه الحماية، فمنحوها لعدد من الرعايا العثمانيين أنفسهم ممن استطاع أن يشتري هذه الحماية بمبلغ كبير ليستغلها في وجوه مختلفة، أو ممن

كان يستطيع أن ينفع بريطانيا أو فرنسا بأية طريقة، ووصل الحال بهؤلاء الأجانب أو المحميين بتخطي القوانين ومخالفتهم المبادئ الإنسانية، فإذا تعرض له متعرض شمخ بأنفه وقال : ((أنا أجنبي))، أو ((أنا حماية أجنبية)). ومثال على ذلك أحدى الروايات تذكر واقعة جاء فيها : ((دهست سيارة يقودها رجل أجنبي طفلاً في بيروت. فأمر الشرطي السائق بالوقوف فرفض قائلاً بلغته الأجنبية : القنصلية. لا شأن لي معك. وتابع (السائق) طريقه تاركاً الطفل المسكين يعاني سكرات الموت)) [23].

أما إذا اعتنق رجل من النصرانية أو أنتقل إلى المذهب البروتستانتي[24] فكان القناصل والرجال السياسيون البريطانيون يأخذونه تحت جناحهم علناً ويتدخلون في كل صغيرة وكبيرة من أجله حتى في الأمور الداخلية البحتة، وهكذا كان كثيرون يتظاهرون باعتناق البروتستانتية لينالوا الحماية والمال اللازميين[25].

وحرصت بريطانيا على أن تحمي الارساليات البروتستانتية لاسيما، سواء أكانت هذه الأرساليات بريطانية أم أميركية، أم المانية. ومن الجدير بالذكر أن الحكومة العثمانية أرادت أن تمنع باعة الأناجيل الدوارين من التجول في المدن والقرى، لكن تدخل القناصل البريطانيين أقنع الحكومة العثمانية على العودة والسماح لهم بذلك. ويفهم من ذلك أن القناصل البريطانيين. كانوا يؤيدون المبشرين. إذ كان هؤلاء كلما وجدوا مراقبة أو أذى من الدولة العثمانية لجأوا إلى قناصلهم، وكان القناصل يدافعون عنهم كرعايا أجانب في الظاهر[26].

وقد اثمرت المساعي التي بادر بها القناصل البريطانيون في سوريا، فقد دخل القنصل البريطاني فارون (Varun) مدينة دمشق في موكب حافل ممتطياً جواده في عام 1833م[27]، هذا ولد حالة من الاستياء لدى أبناء البلد الذين كانوا يرون أن لبلدهم قدسية يجب أن لا يدنسها الأجانب، ويبدو أن الدافع الحقيقي لذلك هو خوف التجار الدمشقيين من أن يفلت زمام التجارة من أيديهم وينتقل إلى أيدي التجار الأجانب. وبعد دخول القنصل البريطاني فارون ، تتابع دخول قناصل الدول الأوربية الأخرى[28].

وعلاوة على ذلك فقد أرتفعت مكانتهم من نظرة تحقير ومنع ارتداء لباسهم الوطني ووضع الشارات المميزة إلى نظرة تقدير وربما نظرة خوف أيضاً. وأثر وصولهم أنتشر التجار والسياح الاجانب ولاسيما لبريطانيين في سوريا وولاياتها[29].

ثالثا: التفاعل الاجتماعي بين نشاط القناصل البريطانيين وسكان الولاية.

وفي البداية أقام القناصل البريطانيون مع أسرهم في أماكن محددة من المدينة فقط، وكانوا يتحاشون السكن في أحياء المسلمين لكنهم مع الزمن خرجوا من هذه الاحياء. إذ انتقلت القنصلية البريطانية إلى خارج السور في أوائل القرن التاسع عشر بالقرب من سرايا الوالي، وانتقل بعض أفرادها إلى قلب المدينة ليستقروا إلى جانب الأهالي. [30] بالطبع ترافق فتح القنصليات الأوربية بتدفق التجار الأوربيين والذي رافقه تغلغل الاقتصاد الأوربي وآثاره السلبية على الاقتصاد العربي. فقد كان التوازن في التجارة مع أوربا مستمراً إلى مطلع القرن التاسع عشر نتيجة المقايضة ولكن في منتصف القرن التاسع عشر تغير الوضع وأغرق الأوربيون السوق الداخلية بالمواد المصنعة[31].

لم تكن علاقة القناصل بأهالي سوريا حسنة فقد أتهموا بأثارة المنازعات بين الأهالي، لذلك باتوا مكروهين[32]، إذ انحاز كل قنصل من قناصل الدول الكبرى إلى طائفة من السكان يدافع عن مصالحها مقابل اعتراف الطائفة بفضل القنصل عليها وولائها لدولته. وكان الأهالي المتمتعون بحماية القنصل البريطاني لا يتورعون عن شتم وتحقير الأهالي الآخرين[33].

وعلى الرغم من العلاقات المفتوحة والتوافق الديني بين الاوربيين والمسيحيين الوطنيين، فأن نظرة الأوربيين إليهم لم تكن دائماً نظرة ود، لذلك فلم يكن كره القناصل مقتصراً على مسلمي الولاية بل كانت بعض الطوائف في حماية بعض القناصل كان من الطبيعي ان ينعكس الخلاف بين القناصل إلى نزاع بين الطوائف المسيحية، وتمثل ذلك في اعتداء طائفة الكاثوليك في الناصرة على قنصل بريطانيا برنو (Brno) لاقدامه على دخول كنيستهم، وجرحوا مرافقيه، وعاقبت الولاية المعتدين بالسجن، كما اقترح الوالي نقل القنصل البريطاني[34].

وكانت ولاية سوريا قد شددت على فرض عقوبات على الأهالي الذين يعتدون على القناصل، فعندما اعتدى بعض الأهالي على وكيل القنصل البريطاني في دمشق اهتمت الحكومة في استانبول بالموضوع، وأمرت باتخاذ جميع التدابير التي من شأنها أن ترضي السفارة البريطانية في استانبول وحتى تعلن السفارة البريطانية عن رضائها عن الإجرءات التي اتخذت، كما أصدرت تعليماتها إلى الولاة بالمحافظة على الأمن والعمل على زيادة قوات الأمن في الأماكن التي يكثر فيها الأجانب. ولابد من الاشارة هنا إلى أن هذا الاهتمام يفسر حرص الدولة العثمانية على أبقاء علاقاتها طيبة مع بريطانيا، كما يتبين بأن قناصل بريطانيا في دمشق كانوا مكروهين أكثر من غيرهم، فلذلك كثرت الاعتداءات عليهم[35].

ومن الجدير بالذكر أنه عن طريق القناصل والتجار شاهد الدمشقيون مظاهر الحضارة الاوربية وما حققته الثورة الصناعية ، ونمطاً جديداً من الحياة الاجتماعية لم يألفوه وفي هذا الإطار بدأ اليهود والنصارى أولاً بتقليد الأوربيين فلبسوا لباسهم الأوربي وحلقوا لحاهم[36]. مما سبب بعض المشاكل في المجتمع الدمشقي. وكان القناصل يوجهون جهودهم نحو اليهود والنصارى لنشر الفرقة والاختلاف. كما تدخلوا بين الطوائف بأثارة الدسائس التي كان لها نتائج سيئة في بلاد الشام[37]. فضلاً عن ذلك فأن بعض التجار والقناصل البريطانيين أخذوا بتأسيس البيوت التجارية وعلى سبيل المثال اسس جيمس بلاك (James Blake) البريطاني محلاً تجارياً عام 1841م وكذلك البريطاني هنري تشرشل (Henry Churchill) الذي كان ينتمي إلى العائلة الارستقراطية (مارلبورو) والذي كان متأثراً بالمحيط العربي ويرتدي اللباس الوطني ويضع الكوفية والعقال، حتى إنه تزوج من إمرأة حلبية ثم أخرى شهابية من العائلة الشهابية، وأسس عدة مزارع أقام فيها مما يدل على تأثير البيئة العربية التي فرضت نفسها على القادمين حتى ولو كانوا تجار أو قناصل أوربيين[38].

وهكذا يتضح أن القناصل البريطانيين كانوا يسيئون استعمال الامتيازات التي منحتها لهم إدارة الدولة.

الخاتمة

أكدت الدراسة انه على الرغم من العزلة التي عاشها القناصل البريطانيون، وسط المجتمع السوري، كفئات غريبة عنه، جنساً ولغةً ودیناً ونظاماً وحضارة. فقد أراد لها هذا المجتمع ان تحيا على حوافه، لا إن تتغلغل في صميمه وأعماقه، فعزلتها أكثريته المسلمة، وانكمشت عنها. فكان للقناصل البريطانيين المقيمين في المدن والمواني‌ء السورية حياتهم الاجتماعية المتميزة، اذ كانوا يشكلون فئات متواضعة في خضم المجتمع السوري، في عاداته وتقاليده، وسبل حياته، وشعروا بالوحشة والاغتراب، وأحسوا بحاجتهم الى التلاقي والترابط مع زملاء لهم من نفس موطنهم او مجتمعهم. فأخذوا بالتجمع مع بعضهم بعضاً وكونوا الكومون او الامة الانكليزية. ومرجع هذا التكتل الاجتماعي ان خشية الشعور والاغتراب في وسط محيط مغاير لهم دينياً وقومياً. اذن فتقاربهم لبعضهم البعض كان للدفاع عن انفسهم ضد الموقف المضاد للسكان الاصليين، كي يكونوا قوة تحترمها السلطة الحاكمة، وتنفذ امتيازاتها.

ولكن مع ذلك فان القناصل البريطانيين كانوا يسيئون استعمال تلك الامتيازات التي منحتها الحكومة لهم، ويحاولون التأثير في شؤون الولاية، الامر الذي ولدَ الاحقاد الاجتماعية تجاههم.

Abstract

Social activity of British consuls in Syria during the first half of ninbeenth century.

My choice of this subject according to historical views that explain efforts and social activities of the British consuls in Syria during an important historical period represented by first half of the nineteenth century.

This matter needs to distribute the study to the following points:

1- British consuls and social life in Syria in the beginning of nineteenth century.

2- Social activity of British consuls and their relations with the ingredients of Syrian society.

3- social reaction between British consuls activity and state population

The study stressed that in spite of isolation that has been lived by British consuls in Syrian society as a strangers in sex, language, religions, system and civilization, this society has wanted from these strange categories to live normaly not to penetrate inside Syrian society deeply.

British consuls has been isolated and with drawed by Muslims majority. British consuls who were resident in Syrian's cities and port had their own distinguished social life. They were forming a simple categories inside the traditions and way of living of the Syrian society. They felt with estrangement so they needed to meet and connect with their citizens from the same home and society. That's why they gathered with each other making what is called. Al (comon) or English nation. They made this social bloc because they were afraid from living inside a society a different from their society nationally and religiously. That's mean their getting closer to each other was to self defense against the apponent attitude of origin population, thus, they would be respectful and privileges implemented by ruling power but, British consuls were ill – using these privileges given to them by government. They were trying to interfere in state's affairs that's why social malicious have been created against them.

المصادر و الهوامش

[1] الاسكالات: ومفردها(اسكلة) وهي كلمة ايطالية او يونانية الاصل تبناها الاتراك، وتعني(سلم)، ثم عممت على المواني‌ء فالمدن التي اقامت فيها الجاليات الاجنبية في الشرق، وعملت فيها بالتجارة، مثل حلب وطرابلس والرملة. ويبدو ان الكلمة كانت كثيرة الانتشار في معظم الاوساط في القرن السابع عشر، حتى تلقفها سكان البلاد الاصليين من العرب وتبنوها، ومن ثم نراها واردة في كتابات المؤرخين المعاصرين لتلك المدة. وضفوة القول فان المقصود من (اسكالات الشام) هو المواني‌ء والمدن الشامية التي اقام فيها الاجانب ، في القرنين السادس عشر والسابع عشر، وكانت محطاً لتجارتهم ونشاطهم للمزيد ينظر: عيسى اسكندر المعلوف، تاريخ الامير فخر الدين المعني الثاني، لبنان، 1938، ص188؛ فيليب حتي، لبنان في التاريخ، ترجمة: انيس فريحة، بيروت ، 1959، ص395.

[2] ليلى لصباغ، الجاليات الأوربية في بلاد الشام في العهد العثماني في القرنين السادس والسابع عشر ((العاشر والحادي عشر الهجريين))، ج 2، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1، 1989، ص643 .

[3] الخانات : وهي بناء ضخم مربع أو مستطيل، يشبه بمظهره الخارجي حصناً إقطاعياً أو ديراً، ويضم ساحة داخلية واسعة، لتسهيل عمليات تعبئة البضائع وتفريغها، وتحميلها وشحنها، وتنفذ إليها حيوانات الحمل المختلفة. ويمتد على أطراف الباحة رواق مقبب، تفتح عليه المخازن التي يكدس التجار فيها بضائعهم. فالطابق الأرضي إذن كان يضم في العادة المخازن والحوانيت والاصطبلات، بينما يقوم في الطابق الثاني عدد من الغرف لسكنى التجار. ولم يكن للاجانب حق ملكية الخانات أو الفنادق، وأنما هي أبنية كانت تضعها حكومة السلطان المملوكي تحت تصرف التجار، تسهيلاً لاقامتهم في البلاد، وقيامهم بالتجارة فيها . كما أن العثمانيين كانوا يشجعون على بناء الخانات بنطاق واسع، وقد شيدت في الاحياء المجاورة للأسواق . للمزيد ينظر : كامل بن حسين الحلبي الغزي، نهر الذهب في تاريخ حلب، ج2، المطبعة المارونية في حلب، 1921، ص196؛ سامي سلطان سعد، أسس العلاقات الاقتصادية بين الشرق الأدنى والجمهوريات الإيطالية من 1100–1400م، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة القاهرة، 1958، ص112 .

[4] خان الجمرك : وهو من أشهر الخانات التي استقر البريطانيون فيها لأسباب الراحة المتوافرة فيها، وكان يسمى بـ(الخان الكبير)، وقد بني في عام 1532 من قبل إبراهيم خان زادة محمد باشا، وكان بضم (52) مخزناً، و (77) غرفة للسكنى، وسوقين حجريين يحويان (344) دكاناً، وفسقيتي ماء، ومسجداً، وكان مدخله ضخماً ومتوجاً بمجموعة من القباب منتصبة على مقرنصات. ومساحة الخان لا تقل عن (8000)م2، وسمي بخان الجمرك لأن السلطات كانت تستوفي الرسوم الجمركية فيه. للمزيد ينظر : كامل بن حسين الحلبي الغزي، المصدر السابق، ج1، ص81 .

[5] المصدر نفسه، ص232 .

[6]Wood (A. C), A history of the Levant company, London, Oxford University press, 1935, P.240.

[7] للمزيد ينظر : عبد الكريم زيدان، أحكام الذميين والمستأمنين في الإسلام، بغداد، 1963، ص559؛ ليلى الصباغ، المصدر السابق، ص665-667 .

[8] وهي منضدة طويلة (يتناول معظم التجار البريطانيين طعامهم عليها لقاء مبلغ معلوم). ففي حلب دفع تاجر في عام 1693م للقنصل ثمناً لطعامه وطعام خادمه (180) قرشاً في السنة. وكان قنصل بريطانيا الذي يأكل على مائدته عدد كبير من التجار يتقاضى (200) قرش سنوياً عن كل تاجر دون أن يلزم نفسه بأطعام الخدم. ليلى الصباغ، المصدر السابق، ص708 .

[9] المصدر نفسه، ص713 .

[10] المصدر نفسه ، ص709، 711 .

[11] يؤكد البند (29) الخاص بالامتيازات البريطانية لعام 1675م على أن لا يوضع أي عائق في وجه السفراء والقناصل وغيرهم من الرجال البريطانيين الذين يرغبون في صنع النبيذ في بيوتهم لاستهلاكهم الشخصي واستهلاك عائلاتهم. ولا يجوز للانكشارية أن يطالبوهم بأي شيء أو يضايقوهم في ذلك.

J. C. Hurewitiz, Diplomacy in the Near and Middle East, Princeton, 1956, P.26.

[12] ليلى الصباغ، المصدر السابق، ص715 .

[13] المصدر نفسه، ص755 .

[14] ويضرب مثلاً بما حدث لأحد البريطانيين (دادلي نورث). فقد كان هذا يقف متفرجاً أثناء عيد الاضحى على راقص على حبل، وكان يضبط الوقت له في ساعة بيده، وفجأة انقطع الحبل، فاتهمه المشاهدون بأنه هو السبب لأنه قام بعمليات سحرية، وتمتم بكلمات غامضة، وهو يتطلع إلى ساعته. وكادوا يفتكون به لولا هربه. ينظر : المصدر نفسه، ص757 .

[15] المصدر نفسه، ص759–760 .

[16] المصدر نفسه، ص765 .

[17] المصدر نفسه، ص610 .

[18] المستأمنين : وهم التجار الأجانب من غير المسلمين الذين سمح لهم بالإقامة في الدولة العثمانية، واعترفت الدولة بهم كطوائف أو ملل مستقلة تطبق شرائعها الخاصة. ولما كان هؤلاء التجار الاجانب ليسوا من رعايا السلطان العثماني فقد منحوا فرماناً بالامان (عهد الامان)، ونظمت طوائف التجار ووضعت تحت الاشراف المدني والقانوني لقناصل من دول هذه الطوائف مع مزايا خاصة تتعلق بالضرائب والرسوم الكمركية وفقاً لشروط الاتفاقيات التي كان يتم عقدها بين الدولة العثمانية وبين حكومات التجار الاجانب. ينظر: عبد العزيز محمد عوض، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا 1864–1914م، دار المعارف بمصر، القاهرة، 1969، ص320 .

[19] مصطفى الخالدي وعمر فروخ، التبشير والاستعمار في البلاد العربية، ط 5، دار البشائر الإسلامية، بيروت، 1998، ص134 .

[20] نادر العطار، تاريخ سوريا في العصور الحديثة، دور حكم السلاطين الفعلي في العهد العثماني (1516–1908)، ج1، مطبعة الانشاء، دمشق، 1962، ص145 .

[21] جوزيف حجار، أوربا ومصير الشرق العربي وحروب الاستعمار على محمد علي والنهضة العربية، ترجمة : بطرس إطلاق وماجد نعمة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1976، ص119 .

[22] مصطفى الخالدي وعمر فروخ، المصدر السابق، ص134 .

[23] المصدر نفسه، ص134 .

[24] المذهب البروتستانتي : وهو أحد المذاهب الدينية المسيحية الذي سارت عليه الطائفة البروتستانتية بعد أن انقسم المسيحيون إلى عدد من الطوائف بسبب اختلاف نظرة كل طائفة منهم إلى طبيعة السيد المسيح (ع)، واختلفت البروتستانتية عن الكاثوليكية والارثوذكسية في عدم

اعترافها بالاسرار السبعة واقتصارها على التعميد والتناول الذي يكون مقصوراً على الراشدين فقط. وانتشرت البروتستانتية في بريطانيا والمانيا الوسطى والشمالية والدنمارك والسويد والنرويج وشمال إيرلندا وامريكا الشمالية واستونيا ولتوانيا. وبدأ نشاط البروتستانت في إيالة صيدا قبل إيالة الشام، إذ استطاعوا في عام 1820م أن يقيموا أول مركز لهم في بلاد الشام في بيروت، ورأى المسلمون والسلطات العثمانية فيهم بوادر تسلل اجنبي بالإضافة إلى صفتهم التبشيرية. للمزيد ينظر : عبد الكريم غرايبة، سوريا في القرن التاسع عشر 1840–1876م، القاهرة، 1962، ص123؛ مصطفى الخالدي وعمر فروخ، المصدر السابق، ص54–55 .

(25) مصطفى الخالدي وعمرو فروخ، المصدر نفسه، ص120 .

(26) المصدر نفسه، ص119 .

(27) كانت التقاليد القديمة في سوريا لا تسمح أن يركب النصراني جواداً (أي غير يهودي) أو أجنبي، لكن سطوة إبراهيم باشا وكرامة دولة بريطانيا عنده بعد معاهدة كوتاهية وطول أناة رجال سياستها اقتضت دخول القنصل البريطاني إلى سوريا بهذه الأبهة الزائدة. ينظر: محمد عبد العزيز عوض، المصدر السابق، ص 323؛ محمد عبد الهادي العليوي، الهجرات الخارجية من وإلى سوريا في العصر العثماني 1831–1916، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب والعلوم الإنسانية، جامعة دمشق، د.ت، ص56 .

(28) عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص323 .

(29) لطيفة سالم، الحكم المصري لبلاد الشام 1831–1841، ط2، القاهرة، 1990، ص265.

(30) يوسف نعيسة، مجتمع مدينة دمشق، ج1، ط1، دار طلاس، دمشق، 1986، ص355 .

(31) محمد فريد، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق : أحسان حقي، ط 7، بيروت، 1993، ص490 .

(32) عبد العزيز محمد عوض، المصدر السابق، ص332 .

(33) المصدر نفسه، ص323 .

(34) المصدر نفسه، ص332 .

(35) المصدر نفسه ، ص333 .

(36) يوسف نعيسة، المصدر السابق، ص358 .

(37) محمد عبد الهادي العليوي، المصدر السابق، ص57 .

(38) فتح الله انطون الحلبي، رحلة فتح الله انطون الحلبي إلى بادية الشام وصحارى العراق والعجم والجزيرة العربية، تحقيق : يوسف شلحد، ط1، دار طلاس، 1991، ص175؛ محمد عبد الهادي العلوي، المصدر السابق، ص58 .